

إذن، فليست هناك تقنية موحدة، ولا شكل موحد يجمع بين أعمال غسان كنفاني الروائية. فان ارتاح الكاتب إلى شكل فهو لا يكرره إلا ليطوره، ولا يطره إلا ليقفز إلى شكل آخر جديد قد يتجاوز سابقه أو يرتد عنه، لكنه يظل يحتفظ بجذته، وبقدرته على الاستجابة للمضمون الذي يطرحه الكاتب.

وهكذا، لم يتوقف غسان كنفاني عن المغامرة والتجريب للوصول إلى الأشكال التي تخدم مضامينه، دون أن يصل إلى شكل يستقر عليه. ولعل عظمة ما قدمه، في هذا المجال، تكمن في تلك المغامرة التي كان يخوضها دائماً بلا رهبة، فاعطت ذلك التعدد والتنوع.

في «رجال في الشمس»، يتكئ غسان كنفاني على معطيات الرواية السيكولوجية الغربية ويستفيد من انجازاتها، ليرسم حالة انسانية، سياسية واجتماعية واقتصادية، في زمن فلسطيني محدد.

تقوم الرواية على تعدد الأصوات، صوت الراوي، وأصوات أبطاله التي لا نسمعها إلا من الداخل.

لكل شخصية من شخصيات الرواية لحظتها الراهنة التي يعبر عنها صوت الكاتب. ومن تلك اللحظة تمسك الشخصية الروائية بتفصيل يرتد بالذاكرة إلى الوراء لتوغل في الماضي، أو لتستدعي من الذاكرة لحظة أخرى مشابهة. وعملية الانتقال من الآني إلى الماضي تتم بتلقائية، بلا إشارة أو فواصل، لتوحي بالتداعي الذي يهدف إليه الكاتب، حيث يرتقي مستوى التعبير الفني وشكله إلى مستوى عملية التداعي النفسي في حد ذاتها.

في الحوار الذي يدور بين «أسعد» والمهرب العراقي، نجد نموذجاً لتلك الحالة:

» - ستصل! ستصل
» - كيف؟
» - انني أقسم لك بشرفي أنك ستصل إلى الكويت!
» - أقسم لك بشرفي انني سألتقيك وراء الا تشفور! ما عليك إلا أن تدور حول تلك المنطقة الملعونة وستجدي بانتظارك» (ص ٥٨).

فالصوت الأخير لم يكن صوت أحد الرجلين، ولا هو جزء من الحوار بينهما، وإنما هو صوت انبثق فجأة في وعي «أسعد» استدعته اللحظة الآنية المشابهة لتجربة ماضية مر بها وسمع فيها ذلك الصوت من رجل آخر.

بمثل تلك التلقائية، يقفز الماضي إلى الحاضر فجأة أو يرتد الحاضر إلى الماضي. وفي مثل هذا الانتقال الفجائي، ترتد الشخصية إلى تاريخها الشخصي وتوغل فيه، وتوغل أكثر في التعرف عليها من خلال تدفق الذاكرة لديها. وهكذا ترتسم أمامنا